

الأعراف التضامنية بمنطقة تادلا ودورها في تدبير الخلاف خلال فترة ما قبل الاستعمار

نورالدين أمعيط*

مقدمة:

لعل من بين القضايا الشائكة في تاريخ المغرب، تلك المرتبطة بالأعراف القبلية وما انبثق عنها من عهود ومواثيق ملزمة للقبائل المتعاقدة، ومنها الأعراف التضامنية وأعراف الحماية وتدبير المشترك، وذلك لأن هذه الأنظمة العرفية التي احتوت في الغالب دورات الصراع والاحتراب بين القبائل، كانت أنظمة شفهية غير مكتوبة في الغالب الأعم، مما جعل النبش فيما كانت تعرفه البنيات القبلية للمجتمع المغربي من اختلاف وتضامن، أمر تكتنفه عدة مصاعب ومشاق.

ومن بين المناطق المغربية التي استندت إلى العرف القبلي في تدبير شؤونها الاجتماعية والاقتصادية خلال فترة ما قبل الاستعمار، نذكر منطقة تادلا[1] التي تمتد على مجال سهلي وآخر جبلي، وتزخر بوجود مجموعة من الاتحاديات ظلت تعمل إلى وقت قريب بترسانة عرفية مهمة، نظمت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بها.

---

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة أبي شعيب الدكالي- الجديدة.

1- تعد منطقة تادلا من المناطق التاريخية الكبرى التي سجلت حضورا بارزا عبر فترات مختلفة من تاريخ المغرب الأقصى بالنظر لموقعها الاستراتيجي وسط البلاد، ويحدد الأستاذ عبد الله العروي موقعها بين منطقة الحوز في الجنوب ومنطقة الأزغار في الشمال، وبين منطقتي الشاوية في الغرب والدير في الشرق. أما عبد الوهاب بن منصور، فقد حدد موقعها في وسط المغرب وجعل قاعدتها قصبة تادلة الواقعة على نهر أم الربيع جنوبي خنيفرة وشمالي بني ملال. والواقع أن منطقة تادلا، ظلت ذات حدود متحركة خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب، فهي لا تنحصر في المنخفض الذي يمتد من الأطلس المتوسط جنوبا إلى هضبة الفوسفاط شمالا، بل كانت تشمل منطقة الدير المتاخم لجبال الأطلس المتوسط وحوض واد أم الربيع والسهول الواسعة الممتدة على ضفتيه اليسرى واليمنى، إضافة إلى الهضاب المشرفة عليها في الشمال والشمال الغربي. أنظر:

-A.Laroui ;**les origines sociales et culturelles de nationalité marocaine(1930-1912)** ;Paris ;ed .Maspero ;1980 ;P.22-23.

- عبد الوهاب بنمنصور، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، المطبعة الملكية، الرباط،1411هـ/1991م، ص.13، الهامش رقم:35. أيضا: نورالدين امعيط، **قراءة في كرامات صلحاء تادلا من خلال كتاب التشوف لابن الزيات**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، العدد:13-14، السنة 2014/2013، ص.75-90.

والواقع أن الظروف الطبيعية، قد لعبت دورا حاسما في توجيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية بهذه المناطق، مما جعل الساكنة تنظم حياتها تماشيا مع ما فرضه عليها المجال وفق أعراف مستمدة من عمق العادات والتقاليد المحلية والتي تنبع من إرادة المجتمع لتتحول إلى نوع من الالتزام الأخلاقي والقانوني داخل القبائل.

وتسعى هذه المداخلة إلى رصد نماذج من الأعراف التضامنية المنظمة لحياة السكان التادليين، من قبيل عرف"**تاضا**" وعرف "**التويزة**" وعرف "**الوزيعة**" والمؤسسات التي تسهر على تنظيمها، و توضيح دور تلك الأعراف في تكريس روح التضامن، ونبذ الخلافات بمنطقة تادلا خلال فترة ما قبل الاستعمار.

وقد استقينا معلوماتنا عن الأعراف التضامنية لمنطقة تادلا خلال فترة موضوع الدراسة، بالاعتماد على معطيات تستند إلى دراسات سابقة أو مصادر شفهية، وإن كنا ندرك أن المكونات التنظيمية للقبائل المغربية، لا تختلف عن بعضها البعض إلا في جزئيات محدودة[2]، وتحظى بنوع من الاحترام من طرف كل القبائل، وتسهر على تطبيقها جملة من المؤسسات تمارس وظائفها بشكل تام، ساعية إلى نزع فتيل الخلاف الذي ينتج عن التفاعل وتدبير المشترك، ومكرسة لروح التضامن والتوافق بين مختلف مكونات المجتمع التادلي.

وقبل رصد نماذج من الأعراف التضامنية التي سادت بمنطقة تادلا خلال فترة ما قبل الاستعمار، نرى من المفيد الوقوف عند بعض المفاهيم، من قبيل العرف، والعادة وأزرف و أبريد وتيعقيدين.

أولا: نحو تحديد المفاهيم

1-العرف: هو الشيء المعروف والمألوف، والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس وتطمئن إليه[3].وفي اصطلاح الفقهاء فالعرف ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول[4]. لذلك فكل ما

2- لعل ما يؤكد هذا القول، ما ذهب إليه روبير أسبينيون حين ذكر أن" العرف الزاياني، له مميزات أمازيغية خالصة، غير أن نقط التشابه بينه وبين إزرف مختلف القبائل الأمازيغية، كثيرة"، أنظر: **أعراف قبائل زايان، مساهمة في دراسة القانون العرفي الأمازيغي المغربي**، ترجمة محمد أوراغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة ترجمة رقم:1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1432هـ/2007م، ص ص.10-11.

3- ابن منظور، **لسان العرب**، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ/2003م، المجلد:6، مادة: عرف.

4- عمر بن عبد الكريم الجيدي، **العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما لدى علماء المغرب**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982م، ص.34.

تعارف الناس عليه من قول وفعل، ولم يتعارض مع شهادة العقل والطباع، يعد عرفا[5]. لكن لما كانت العقول مختلفة بين الأفراد وخاضعة للتأثير بحسب الزمان والمكان، فإن ذلك ينتج عنه اختلاف الأعراف، لذلك يظل الشرع محددا أساسيا للتمييز بين العرف الصالح والعرف الفاسد[6].

وعليه، يصبح العرف هو ما تعارفت عليه جماعة من الناس قولا أو فعلا، وغير متعارض مع العقل والطبع السليم وموافقا للشرع. أما القيم على شؤون القبيلة أو الجماعة من الناس، فيسمى عريفا.

وتشكل مجموع الأعراف، قانونا عرفيا في لغة القبيلة، فهي تستمد أحكامها منه. لذلك كان لابد لكل قبيلة أو لف من أعراف موحدة، تستمد منها هيأة "إنفلاس(الشيوخ) ما تصدره من أحكام"[7].

ويسمى العرف لدى القبائل الأمازيغية بمنطقة تادلا الجبلية، ب"**أبريد إيمن**"، أي الطريق المستقيم، كما يعرف أيضا باسم "**أزرف**" الذي يجمع على "إزرفان"، وهو المصطلح الأمازيغي السائد لدى قبائل زيان[8] وتادلا إلى جانب استعمالهم للمصطلح العربي "العرف"، فيقال مثلا: " أندو-أبريد" أو "أندو إزرف"، بمعنى: هيا لنقصد القضاء[9]. بينما يعرف بمناطق أخرى كأيت عطا الصحراء بمصطلح "**تعقيدين**"[10]، الذي يحمل دلالة الأعراف الشفهية التي تمثل القواعد التقليدية الموروثة عن الأجداد، كما يدل على الاتفاقيات والمواثيق التي تعقد بين المجموعة القبلية خدمة للصالح العام، ويتخذ أشكالا عديدة ومختلفة حسب مصالح القبيلة ومؤسساتها الساهرة على حماية العرف[11].

5- أحمد الشرباصي، **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، دار الجيل، بيروت،1401هـ/1981م، ص ص.291-292.

6- نفسه، ص. نفسها.

7- علي المحمدي، **السلطة والمجتمع في المغرب، نموذج أيت با عمران**، دار توبقال للنشر، ط1، البيضاء، 1990، ص.55.

8- **أعراف قبائل زايان**، م س، ص.9.

9- نفسه، نفس الصفحة.

10- جورج سبيلمان، **آيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا**، ترجمة محمد إحدى، جذور للنشر، الرباط، 2008، ط1، ص.74، الهامش رقم:2. عبد الله استيتيتو، **التاريخ الاجتماعي والسياسي لقبائل آيت عطا الصحراء إلى نهاية القرن التاسع عشر**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة ندوات والمناظرات، رقم:27، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2011، ص.191.

11- نفسه، نفس الصفحة.

2- العادة: هي من تعود الشيء وعاده وعاوده واعتاده، أي صار له عادة[12]. والعادة من العود أي الرجوع، لأن صاحبها يعاود الرجوع إليها مرة بعد أخرى[13]. وفي تعريف الأصوليين هي تكرار الشيء دائما على نهج واحد بدون علاقة عقلية[14].

وليس ثمة حد واضح بين العادة والعرف، فالعرف "عادة أو سنة أو خطة عملية يعتقد المجتمع أن في اتباعها ضرورة اجتماعية"[15]، فهو "يتكون من ضمير الجماعة بطريقة لا نشعر بها، شأنه في ذلك شأن قواعد اللغة والأخلاق وغيرها، مما يخلقه المجتمع لنفسه بنفسه"[16].

ثانيا: الأعراف التضامنية بمنطقة تادلا، التجليات والوظائف

شكلت الأعراف التضامنية إحدى ميكانيزمات التحالف وتدبير الخلاف والدفاع عن المصالح الاقتصادية والاجتماعية سواء داخل القبيلة نفسها أو بينها وبين القبائل المجاورة. وكان عقد هذه الأعراف وإبرام مقتضياتها يخضع لطقوس محددة شكل تجسيدها مع مرور الزمن قواعد راسخة في ذاكرة الأفراد والجماعات التي تناقلتها عبر الأجيال. وهي الأعراف التي ظل بعضها سائدا ومتداولا بقبائل تادلا، إلى حدود النصف الأول من القرن العشرين، بل منها المتداول والمعمول به إلى يومنا الحاضر، باعتبارها قواعد قانونية تحظى باحترام الفرد والجماعة، وتتداخل مع الشرع على مستويات عدة[17]، ومن هذه الأعراف نذكر:

1-عرف تاضا

لعل من بين الأعراف التضامنية المنظمة للحياة الاجتماعية بمنطقة تادلا، نذكر عرف تاضا[18]، الذي يعرف عند أهل المنطقة ب "طاطا". ويبدو أن التسمية مشتقة

12- عمر بن عبد الكريم الجيدي، م س، ص ص.34-36.

13- نفسه، ص.36.

14- أحمد الشرباصي، م س، ص.292.

15- حسن الساعاتي، **علم الاجتماع القانوني**، القاهرة،1960، ط2، ص.121.

أيضا: عبد استيتيتو، م س، ص ص.189-190.

16- نفسه، نفس الصفحة.

17- يقول روبير أسبينيون عن وجوه تداخل العرف بالشرع، أن الأمر تعدى استعمال المصطلحات حين تصيح المرأة الأمازيغية مثلا طالبة العدل، فتقول"أنا بالله و بالشرع"، إلى استعمال العناصر التشريعية نفسها، أنظر : **أعراف قبائل زايان**، م س، ص.10.وأيضا: رحمة بورقية، **الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1991، ص.82.

18- رحمة بورقية، **تاضا، معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1413هـ/1992م، ج6، ص.2066.

من فعل "تض"[19] الذي يدل على الرضاعة، ذلك أن تحقيقها كان يتم بطقوس، بالرغم من اختلاف جزئياتها، فإنها تظل متمحورة كلها حول الرضاعة[20]. ويحمل مصطلح "تاضا" مفهوم الأخوة، كما يحمل دلالة الحلف والعهد والصداقة[21] بين فردين، أو بين دوارين من قبيلتين مختلفتين، أو بين قبيلتين، أو بين اتحاديتين من القبائل، وهو ما أشار إليه كل من القبطان كور سيمو[22] وسعيد كنون[23]. وتوضح مختلف الدراسات التي اهتمت بتاضا أن المجتمع المغربي كان يصنع بمثل هذه الأعراف الاجتماعية القرابة صنعا[24]، بهدف الحفاظ على توازناته الاجتماعية وتوطيد التضامن ونبذ الخلافات والدفاع المشترك لحماية الممتلكات وعرض الجماعة المتمثل في الأرض أو المجال على حد تعبير أحد الدارسين[25].

كان يتم عقد هذا التحالف بمحضر الجماعة الممثلة لكل قبيلة أو بحضور الشيخ أو المرابط أو هما معا في الغالب، وبذلك يتم العقد بحضور الهيئة السياسية والدينية للقبيلتين أو القبائل المتعاقدة في إطار طقوس يتم فيها تبادل شرب الحليب بين الأفراد المكونة للقبيلتين، مما يؤسس لعلاقة القرابة أو الأخوة كتلك التي تجمع الإخوة الحقيقيين. ويمكن للقبيلة الواحدة أن تكون لها علاقة تاضا مع أكثر من قبيلة واحدة، كما يمكن لدوار أن يبرم تاضا مع عدة دواوير من قبائل مختلفة[26].

19- يقال "**تض**" أو "**تطض**" أو "**تلضض**"، أي رضع، والرضاعة"**وْضوض**"، ومنه اشتق مصطلح: **تاضا**، التي تعرف ب"تيبيغوت" أيضا في اللسان الأمازيغي، أنظر: - محمد شفيق، **المعجم العربي الأمازيغي**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة المعاجم، 1993م، ج1، ص.431.

20- أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان(1850-1912)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أطروحات ورسائل (1)، ط2، 1403هـ/1983م، ص.383.

21- محمد شفيق، م س، ج1، ص.431. و أيضا: الحسين آيت باحسين، **مساهمة في بعض أنماط التحالف في المجتمع المغربي وآليات تشكلها**، الحوار المتمدن، العدد: 3654، السنة: 2012، ص.1.

22- Capitane Coursimaut. **La Tatta**. In Les **Archives berberes**.vol.2.fasc.3. Editeur Maison Ernest Leroux. Paris.1917.P.261.

23- سعيد كنون، **أيت أومالو أو الجبل الأمازيغي:"المجال والإنسان والتاريخ"**، تعريب الدكتور محمد بوكبوط، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، العدد18، نونبر 2014، ص.85.

24- أحمد التوفيق، م س، ص.383.

25- يؤكد "جاموس"، أن هذه الأعراف التضامنية، كانت تأتي نتيجة حاجة القبيلة لحماية عرضها الجماعي (L'honneur collectif)، المتمحور حول التراب أو المجال (Territoire) ، أنظر:

-Jamouss(R) ;**Honneur et Baraka ; Les structures Sociales Traditionnelles dans le Rif** ;ed. la maison des sciences de L'homme ;Paris ;1981 ;PP.66-67.

26- سعيد كنون، م س، ص.86.

والواقع أن مسألة اختيار الحليف، لم تكن تخضع لمحض الصدفة، بقدر ما كان الأمر خاضعا لاعتبارات اقتصادية واجتماعية صرفة، وظروف أملتها طبيعة الامتداد المجالي للمنطقة و الواصل بين السهل والدير والجبل.

ولا تزال الروايات الشفوية[27] المتداولة بمنطقة تادلا، تستحضر طقوس تاضا التي كانت تتم بين قبائل المنطقة بواسطة الرضاعة، فكان يجتمع أفراد العائلات الممثلة للطرفين المتعاقدين، ويتم تبادل شرب الحليب بعد جمعه من النساء المرضعات، وتقرأ الفاتحة. وينصرف كل فرد متعهدا بأن له واجبات نحو كل فرد من أفراد القبيلة الحليفة، وله التزامات خاصة تجاه عائلة معينة[28] وجب عليه الالتزام والتقيد بها. وبعد يومين يستدعي كل طرف من الأطراف المتعاقدة حليفه لتناول الغداء عنده[29]، وقد يحصل أن تتكرر الضيافة من الجانبين سنويا لإحياء العهد وتأكيد الالتزام.

وتذكر إحدى الدراسات[30] عن قبائل أيت أومالو، أن الاتفاق التضامني المعروف بتاضا، يتم عن طريق "ارتباط كل اثنين من الأفراد فيما بينهم عن طريق القرعة خلال جمع عام للمجموعتين، بحيث يعطي كل فرد إحدى بلغتيه للوجيه المعين من دواره، فيقوم هذا الأخير بمراكمة الأحذية التي توصل بها ويغطيها ببرنسه، وعند اكتمال عدد البلاغي في كل كومة، يأخذ كل واحد من الوجيهين حذاء بالصدفة ويظهره أمام الجميع، فيعلن الشخصان صاحبي البلغتين اللتين سحبتا في آن واحد ارتباطهما بعرف تاضا".

ويمكن التمييز بين نوعين من تاضا، "تاضا الصغيرة"و"تاضا الكبيرة"[31]، فأما الصغيرة فكانت عبارة عن تحالف جماعي يضمن الأمن بين الأطراف المتحالفة، في

27- رواية شفوية تقدم بها السيد محمد بن علال من قبيلة أولاد يعيش(بني معدان) من مواليد 1946 .

28- أوردت بعض الدراسات أن أفراد عائلات قبائل زمور، الممثلة للطرفين المتعاقدين، كانوا يجتمعون، ويتم مزج أحذيتهم (البلاغي)، وتأخذ الجماعة في كل مرة حذاءين (بلغتين) فتنادي على صاحبيهما فيصبحان أمام الجماعة متحالفين أو تاضا. وهكذا إلى أن تعرف كل عائلة من هو حليفها، فيتبادل الأطراف شرب الحليب وتقرأ الفاتحة. ونفس الطقوس أوردها القبطان سعيد كنون عن قبائل آيت عطا أومالو، غير أننا لم نجد بمنطقة تادلا ما يؤكد طقوس الأحذية أو البلاغي في عقد العرف التضامني تاضا، في حين تجمع الروايات الشفوية على حضور طقوس تبادل شرب الحليب. أنظر:- سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي**، م س، ص.85-86. - أيضا: رحمة بورقية، **"تاضا"، معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للنشر والتأليف والترجمة، مطابع سلا، 1410هـ/1998م، ج6، ص.2066-2067.

29- أسبينيون (روبير)، م س، ص.26.

30- **الجبل الأمازيغي**، م س، ص.86.

31 -Coursimaut. Op.cit.P.262.

حين كانت الكبيرة تحددها قوانين صارمة لا يسمح بخرقها لأن كل فرد من الفرق المتحالفة مطالب بالامتثال لمجموعة من الالتزامات يفرضها عليه التحالف بتاضا.

ولعل من بين الالتزامات المترتبة عن عقد تاضا، بمنطقة تادلا، نذكر التزام المتعاقدين بالصدق وعدم ارتكاب أية جريمة من كلا الطرفين، واعتبار ممتلكات الحليف الآخر مقدسة[32]، فضلا عن حق الضيافة والترحاب، كما أن زيارة أحدهم للآخر، كانت مناسبة لإظهار الأخوة والمبالغة في الكرم والتوقير، حتى أنه يعتمد كالشريف ويتخذ أحيانا كحكم لفض النزاعات عند القبيلة المستضيفة.على أن حلف تاضا أو عهد الأخوة كما يسمى، يحاكي الأخوة الحقيقية من حيث الالتزام بالروابط العائلية داخل العائلة نفسها من حماية الأخ واللجوء إليه وقت الشدة[33].

والواقع أن عرف تاضا التضامني، ما فتئ أن دخل عالم القداسة بواسطة الأسطورة، حيث تذكر الرواية الشفوية، أن مخالفة عهد تاضا من قبل أحد الأطراف، كان يجر عليه الكثير من المتاعب والويلات، حتى قالوا فيمن خالف عهد تاضا وتزوج من القبيلة الحليفة "لا يفلح الرجل ما دامت في عصمته امرأة من تاضا"[34].

وقد شكل العامل الاقتصادي أحد العوامل الرئيسة في عقد تاضا، ويتمثل في حاجة المتعاقدين إلى الأمن والعون التي تخلقها ضرورات اقتصادية كالرعي الذي يقتضي توسيع المجال الجغرافي، وضرورات سياسية يقتضيها الصراع بين القبائل وبين المخزن لتكون تاضا وليدة لمجتمع "الزطاط" و"المزراك"[35]. والمقصود **بالزطاط**، حامي التجار والقوافل من قطاع الطريق، ومنه **الزطاطة**، أي ما يعطيه المارة لحاميهم في الطريق المخوفة، وكان أداؤها على عدد أحمال القافلة، وليس على قيمة ما يوجد بها من سلع[36]، - أما **المزراك** فهو تعاقد عرفي يطلب بموجبه شخص معين، الحماية من شخص آخر، لما يكون له من نفوذ ووجاهة وشجاعة بين قومه،

32- سعيد كنون، م س، ص.86.

33- رحمة بورقية، م س، ص.96.

34- أحمد التوفيق، **إينولتان**، م س، ص.383.

35- رحمة بورقية، **الدولة والسلطة والمجتمع**، م س، ص.98.

36-. أنظر:- نورالدين امعيط، **المصطلح الاقتصادي في تاريخ المغرب والأندلس، نماذج وقضايا من القرنين 5و6هـ/11-12م**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، جامعة المولى إسماعيل،2011/2010، ص.357. -أيضا: هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،1415هـ/1995م، ج2، ص.288.

ويتجاوز هذا العرف الأفراد ليعقد بين الأفخاذ والقبائل عبر طقوس عرفية مقننة حيث يدبح طالب الحماية ذبيحة، وتكتسي طابعا قدسيا يصعب خرقه. ويعرف الحامي بمصطلح **الكاسي** أيضا كناية على كساء الحماية الذي يلتزم بتوفيره للشخص المحمي[37].

2- عرف التويزة:

يعد عرف التويزة من أهم الأعراف التضامنية التي سادت بمنطقة تادلا، ويعرف هذا العمل التآزري بمصطلح "التويزة"[38]، وفي اللسان الأمازيغي تسمى ب"تاويزا" أو "ثاويزا"، وتجمع على "ثيوزين". و هو مشتق من مصطلح "وز" الأمازيغي الذي يعني العون والمساعدة، وقد ضمت إلى أوله حرف التاء التي اقتضاها تعريف الاسم في اللسان الأمازيغي.

ومعلوم أن النشاط الزراعي والرعوي، قد شكل قطب الرحى بالنسبة لاقتصاد القبيلة بمنطقة تادلا، سواء قبل فترة الحماية أو بعدها، حتى أن اسمها (تادلا) الذي يدل على غمرة السنابل، قد عكس أهمية النشاط الفلاحي بها[39]. غير أن الخدمات المرتبطة بالأنشطة الفلاحية، كانت تفوق استطاعة الإنسان التادلي بكثير، وتتعدى قدراته الفردية، لا سيما في ظل تحديات الطبيعة وظروف المجال وبساطة الأدوات أو غيابها واعتماد الجهد العضلي. لذلك، فقد كانت الحاجة ماسة لتجسيد مبدأ التكافل وترسيخه بقوة لدى القبائل المغربية عامة، وبمنطقة تادلا على وجه التحديد، فهم يمدون يد العون لبعضهم البعض على قدر استطاعتهم. ولا غرو، فإن كثيرا من الأشغال داخل القبيلة، كانت تتم بالتويزة[40]، إذ ترسل كل خيمة أحد

37- أنظر: - محمد المشرفي(1839-1916م)، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق، إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005، ج2، ص.135.

-أيضا: أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع ق17-مطلع ق20م)، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية**، آفاق متوسطية للنشر، 1994، ص.167. الهامش رقم:1.

38- نفسه، ص.41. و أيضا: بورقية، **"التويزة"، معلمة المغرب**، م س، ج8، ص.2652-2653.

39- يرى بعض الباحثين أن اسم تادلا حسب التفسير الأمازيغي المتداول، تعني حزمة السنابل، مما يدل على خصوبة المنطقة من جهة، وانتشار زراعة الحبوب بها من جهة ثانية، وذلك منذ أن انتقل سكانها من حياة الرعي والترحال إلى الزراعة. أنظر:
- محمد حجاج الطويل، **النشاط الاقتصادي في تادلا خلال العصر الوسيط**، مجلة **تادلا، التاريخ والمجال والإنسان**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، 15-16-17 أبريل 1992، ص.37-49.

40- أحمد التوفيق، م س، ص.322.

أعضائها للعمل بصورة تطوعية في حقل طالب المساعدة[41]، خاصة خلال فترات الحرث والحصاد.

إن هذا العرف التضامني، كان يقتضي من المتضامنين تقديم الخدمة للمستفيد دون أجر، مستعملين في ذلك أدواتهم ودوابهم الخاصة، ويكتفي المستفيد بإطعامهم طعاما قد يكون ذبيحة أو عدة ذبائح بحسب إمكانية المستفيد الذي يكون في الغالب من ذوي الغنى والجاه والنفوذ[42]. ولم يكن للمستفيد بدوره أن يتخلف لمساعدة من آزره من قبل، وإن تعذرت استجابته أرسل خادما أو أجيرا يقوم مقامه[43].

والواقع أن العرف التضامني المعروف "بالتويزة"، كانت له دلالات اجتماعية عميقة، بل كانت له أهداف ووظائف، لعل أبرزها إذابة كل مظاهر النزاع، وتقوية روابط الوحدة والتضامن. ولا غرو، فإن اللقاءات التي تتم خلال العمل بين أفراد القبيلة الواحدة أو القبيلتين المتجاورتين، كانت فرصة سانحة أمام الطرفين لرأب الصدع وحل المشاكل والنزاعات، وتمتين الروابط العائلية، خاصة وأن نظام التويزة العرفي، كان يضمن مشاركة وحضور الجميع، رجالا ونساء وأطفالا في إطار عمل تطوعي، وبذلك تكون الفرصة متاحة للشباب للتعارف والزواج. لا سيما وأن العمل كان يتم في جو من الفرح والحبور والغبطة، مع ترانيم وأهازيج تؤثث الفضاء التضامني وتحث على العمل والتآزر وتذكر بنعمة الله.

إن هذا العرف التضامني، يجعل من القبيلة المكونة من فخذات متعددة، كتلة إنتاجية واستهلاكية موحدة، حيث تكون للقوة البشرية أهمية بالغة، فكلما كثر عدد الأفراد المتعاونين، كلما ساعد ذلك على قهر قساوة الطبيعة، وحماية ممتلكات القبيلة، والدفاع عنها عند الاقتضاء[44].

ويبدو أن عرف التويزة الذي استمر بالعديد من مناطق المغرب إلى عهد قريب، قد تطور داخل القبيلة الواحدة بمنطقة تادلا، فلم يعد مقتصرا على الحرث

41- أسبينيون، م س، ص ص.41-42.

42- نفسه، ص.41.

43- نفسه، ص.42.

44- الهادي الهروي، **القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث(1844-1934)**، أفريقيا الشرق، المغرب،2010، ص.100.

والحصاد فحسب، بل امتد ليشمل كل الأعمال التضامنية بين أفراد القبيلة وقت الأفراح والأتراح كمواسم الحرث والحصاد وجني الزيتون وبناء المسجد أو استصلاح الطرق والمسالك والسوق والأماكن المقدسة، وغيرها، مما تعتبره القبيلة ملكية لها، إذ يشارك كل فرد في صيانتها بقدر ما تقرره "اجماعة"[45].

وتجدر الإشارة إلى أن عرف التويزة التضامني قد ترسخ بشكل كبير داخل المجتمع القبلي التادلي، كما في عموم المغرب، حتى أنه تعدى عمل الرجال، ليشمل بعض أعمال النسوة، من قبيل غسل الصوف، ونسج الأغطية، وصنع الخيام، وتحضير الكسكس المفتول باليد، أو ما يعرف "بالعولة" لدى بعض التادليين، مجسدا بذلك أجمل صور التضامن والتآزر بالمنطقة.

3-عرف الوزيعة:

جذر المصطلح وزع توزيعا، والتوزيع القسمة والتفريق، ووزع الشيء قسمه وفرقه[46]، ومنه الوزيعة، وهي من الأعراف التضامنية الضاربة في القدم بمنطقة تادلا وعموم المغرب، وتعرف بمصطلح "الوزيعة"، كما تعرف ب "لوزيعت"، في اللسان الأمازيغي[47]، وتدل على عملية توزيع اللحوم بعد ذبح جماعي للأضاحي، بحيث يساهم أغلب سكان القبيلة في تحصيل ثمنها، عن طريق جمع الأموال بإشراف من "اجماعة".

كانت عملية الذبح تتم في الغالب في محيط المسجد أو بالقرب منه، تحت إشراف من أعيان القبيلة، ويتم توزيع اللحم على كافة العائلات في المكان نفسه، بعد إحصاء دقيق لعدد المنازل داخل القبيلة، مع مراعاة حالات الأرامل والأيتام والمعوزين.

وقد كان إحياء هذا العرف التضامني، يتم بشكل رتيب كلما حل شهر رمضان الأبرك، كما كانت تقام الوزيعة في مناسبات أخرى، كعيد المولد النبوي الشريف وليلة عاشوراء، فضلا عن بعض المناسبات الفلاحية كموسم الحصاد، وجني الزيتون، وموعد قص صوف الماشية.

45- سعيد كنون، الجبل **الأمازيغي**، م س، ص ص.84-85.

46- ابن منظور، **لسان العرب**، م س، المجلد9، ص ص.289-290، مادة: وزع.

47- **الوزيعة** من وزع وقسم الشيء، وفي اللسان الأمازيغي، وزع =**نبضا**، والموزع= **أنبضو**، والتوزيع= **توطوضين**.أنظر: محمد شفيق، **م س**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2000، ج3، ص.412.

وتروي الذاكرة الشعبية بمنطقة تادلا، أن عرف الوزيعة التضامني، كان يخضع لطقوس خاصة بحيث تجتمع "اجماعة" بجوار المسجد قبل ذلك للتحضير، بعد ذلك توزع الأدوار، ففيما يتكفل البعض بإعداد مكان الذبح وإعداد الأدوات اللازمة، يهتم آخرون بإحضار الأضاحي وذبحها، بينما كان الشيوخ ينظمون حلقات الذكر وتلاوة القرآن قرب مكان الذبح، الذي يتم بالقرب من المسجد، ويستقبلون صدقات الزوار والدعاء لهم بالخير، في حين يتكفل بعض الشباب بإحضار المياه وتنظيف المكان المخصص لتنظيف اللحم وتجفيفه بعد الذبح. أما النسوة فيتكلفن بإعداد أطباق من الكسكس للزوار والحاضرين[48].

والواقع أن هذا العرف، كان يهدف إلى بناء علاقات التكافل والتضامن داخل المجتمع القبلي المغربي، والتادلي تحديدا، حيث يشترك الجميع في التمويل عدا المعوزين. كما يشترك أغلب سكان القبيلة في التنفيذ كل قدر استطاعته، ويساهم الجميع في عملية الذبح بحيث يصل اللحم إلى كل البيوت خاصة الفقيرة والمعوزة[49].

والحاصل، أن عرف الوزيعة، قد شكل إحدى أبرز صور التضامن القبلي بالمغرب، كما جسد، إلى جانب عرف تاضا وعرف التويزة، ذلك التكامل والتداخل الحاصل بين العرف والشرع على مستويات عدة، خاصة وأن هذه الأعراف دعمتها الشريعة الإسلامية وأكدت عليها. فعرف الوزيعة التضامني مثلا، كانت تنطلق فكرة تنفيذه من المسجد، بل تنفذ عملية الذبح بمحيطه، ويوزع اللحم في ساحته. وقد كان للفقيه، دور بارز في العملية منذ بدايتها إلى نهايتها. وهو الأمر الذي يفند ما روجت له الأطروحة الكولونيالية[50] الانقسامية التي حاولت تقسيم المجتمع المغربي على أساس ثنائية أهل العرف(الأمازيغ) وأهل الشرع (العرب).

48- مقابلة شفهية مع السيد عبد القادر ابن اسعيد من دوار أولاد امحمد، قبيلة بني موسى من مواليد **1941** .

49- رواية للسيد عبد القادر بن اسعيد.

50- للتوسع أكثر حول الأطروحة الاستعمارية التي قسمت الشعب المغربي إلى كتلتين متناحرتين: **الأمازيغ** العاملين **بالعرف، والعرب** العاملين **بالشرع**، أنظر: - دافيد هارت، **القانون العرفي الريفي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل، ترجمة محمد الولي، سلسلة الترجمة -3- مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004، ص.14 .وأيضا:

-Ernest Gellner ;**Les Saints de L'atlas** ;Traduction de Paul Coatalen ;Présentation de Gianni Albergoni ;éditions Bouchene.2008.france.PP.47-78.

ثالثا: المؤسسات العرفية بمنطقة تادلا

إذا كان علم الحياة، هو علم الوظائف الحيوية، فإن علم المجتمعات، هو علم المؤسسات وفق تعريف مارسيل موس[51]، فالمجتمع يخضع لمؤسسات تشكل جهازا للتدبير، وتشيع قيم وسلوكات منمطة، وتتميز المؤسسة بمعايير محدد كالديمومة والالتزام وممارسة طقوس رسختها الأعراف والعادات. فأين تتمثل المؤسسات العرفية بالمجتمع القبلي التادلي؟ وما ظروف تجدرها؟ وما الوظائف التي مارستها؟

تؤكد العديد من المصادر والدراسات التاريخية، أن المجتمع المغربي، قد عرف مرحلة تميزت بغياب سلطة المخزن، خاصة في المناطق النائية، وهي مرحلة اتسمت بالصراعات والحروب القبلية، مع ما رافق ذلك من عصيان القبائل للمخزن وفوضى سياسية، تزامنت والعقود الأولى للقرن 19م، وهو ما تم تسميته في الدراسات والأبحاث الكولونيالية والانقسامية بمقولة "بلاد السيبة"، التي تضعف فيها سلطة المخزن أو تنعدم، مقابل "بلاد المخزن" المتميزة بحضور قوي للمخزن وأعوانه.

ولا تعوزنا القرائن الدالة عن خصائص هذه المرحلة، فالوثائق المخزنية نفسها، تزخر بجملة من المصطلحات والألفاظ الدالة على مميزات هذه الفترة من تاريخ المجتمع المغربي، من قبيل"الفوضى" و"الفساد"و"الفتنة" و"الزيغ" و"الانحراف" وغيرها[52].

وفي ظل غياب سلطة المخزن، لا سيما في المناطق الجبلية حتى آواخر القرن التاسع عشر[53]، لم تكن القبائل التادلية، كغيرها من القبائل، تجد بدا من اللجوء إلى رؤسائها وأعيان "اجماعاتها"، فكانوا يتدخلون في تدبير الخلاف وحسم النزاع عبر

51-Marcel Mauss; Œuvres ;Paris; Minuit;1968-1969;T3.P.150.

- أيضا: عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق، أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط1، 2009، ص.183.

52- محمد جحاح، **الزاوية بين القبيلة والدولة، في التاريخ الاجتماعي والسياسي للزاوية الخمليشية بالريف**، أفريقيا الشرق، البيضاء،2015،ص.129.

53- وخاصة الفترة التي تزامنت و حكم المولى سليمان، والتي عرفت ظروفا اقتصادية صعبة (جراد- غلاء-جفاف)، وهو ما زاد من إشعال نار الفتنة القبلية فيما بين 1811-1819م. وقد قسمت الكتابات الكولونيالية والانقسامية المغرب إلى "بلاد السيبة" ، و"بلاد المخزن". أنظر: -Ernest Gellner ;op cit.PP.47-78.

- وللمزيد من التفاصيل حول خصائص فترة حكم المولى سليمان، أنظر :

- محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين**، ترجمه عن الإنجليزية: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط2، 2012م، ص.183.و أيضا: محمد جحاح، **الزاوية بين القبيلة والدولة**، م س، ص.129.

قنوات عرفية مألوفة ومتواترة، بواسطة عقد معاهدات صلحية وأخوية، احتل فيها عرف تاضا التضامني قطب الرحى[54]، لما كان يحظى به هذا العرف من قدسية في النسق الذهني والثقافي التادلي.

ومن المؤسسات الفاعلة في تدبير الخلاف داخل النظام القبلي التادلي، نذكر:

1- **أجماعة:** تعد مؤسسة "اجماعة" أو "تاجماعت" في اللسان الأمازيغي، إحدى المؤسسات الفاعلة على جميع المستويات في النظام القبلي بالمغرب، فهي مصدر كل مبادرة لا يحيد عنها أي فرد، وتستمد مشروعيتها من تمجيد التعاون بين أفرادها سواء داخل العائلة أو القبيلة.

ومعلوم أن القبيلة(تاقبيلت)، تتكون من مجموع الفخدات المعترف لها بنفس الجد، كما قد تتكون من مجموعات ذات أصول مختلفة فرضت عليها ضرورات الحرب والسكن المشترك أن تتوحد[55].

وتكون هذه المجموعات أو العائلات ما يسمى "بالفخذة"، وفوق الفخذة يوجد العظم أو "الإخس" في اصطلاح القبائل الأمازيغية. وتتكون "أجماعة" من رؤساء جميع العائلات الأصيلة والشخصيات النافذة داخل مجموعة معينة، سواء كانت هذه الجماعة دوارا أو فخذة أو قبيلة أو اتحادية، ويتقلد هؤلاء المهمة مجانا من طرف الرأي العام.

ومن الشروط الواجب توفرها في الشخص المرشح ليصبح ضمن "اجماعة" أو "أجماع"، أن يكون مشهورا بحكمته، معروفا بثرائه ووجاهته، مقداما في الحرب، ذلك أن تقلد هذا الدور يتطلب من صاحبه الحزم والنشاط، وملكية الفرس والبندقية، فضلا عن الكرم[56] وهو شرط أساسي، إلى درجة أن خيمة "أجماع" تعرف ب"أخام بوطعام"، أي خيمة صاحب الكرم والجود، أو "الدار الكبيرة" كما يصطلح عليها لدى القبائل العربية بالمنطقة، فهو ملزم بالاحتفاء بالضيوف وإكرامهم، مما

54- الفقيه الإدريسي، **عهود الأخوة وأثرها في تدبير مجالات المشترك القبلي بجهة تادلا قبل الحماية**، عرض قدم ضمن ندوة علمية، نظمتها جماعة أهل المربع التابعة لإقليم الفقيه بن صالح سنة 2013م، زودني به الأستاذ الفقيه الإدريسي مشكورا (مقال قيد النشر).

55- سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي**، م س، ص.84.

56- وتعد صفة الغنى والكرم والقدرة على القتال من الصفات الأساسية في "**أجماع**" داخل القبيلة، ونفس الأمر ينسحب على "العشيرة التي تتوفر على زعماء محاربين وأشداء، تجد أصدقاء دائما وقت الحاجة. أما البخلاء والفقراء والضعفاء والعبيد، فلا يأبه أحد بمصيرهم". أنظر: م س، ص ص.87-89.

يتطلب منه التوفر على إمكانيات مادية وبشرية، من قبيل نساء طباخات وخدم مؤهل[57].

وتعتبر "اجماعة"، هيئة سياسية تجمع كل السلط، إدارية كانت أو تشريعية أو تنفيذية، وذلك بالنظر لما خول لها من صلاحيات، فقد كانت تجتمع لتوزيع الوظائف الاجتماعية على العناصر المكونة لمجلسها(عناصر العائلات). ومن أدوارها ووظائفها، القيام بترميم المسجد، والتعاون لشق الطرق والمسالك وإقامة السواقي وتنظيم عمليات التويزة وحماية الغرباء وضيافتهم[58]. وقد تنقسم "اجماعة" إلى جماعات صغرى، تنظم العمل وتسهر على التضامن وتدبير المشترك كالمراعي الجماعية والمخازن الجماعية(إكودار)، كما تكلف الجماعة الصغرى المكونة من بعض رجال الجماعة الكبرى بحل بعض القضايا والخلافات ومتابعتها، فهي تتكون من أجل هدف معين وتنحل بمجرد انتهاء المهمة التي تحددها الاحتياجات والمصالح المشتركة[59]، وهكذا نجد "اجماعة تاروا" أو "اجماعة الساقية" و"اجماعة تيويزا"، وغيرها.

ولا تزال الروايات الشفوية بمنطقة تادلا، تحتفظ لبعض الوجهاء من هذه القبيلة أو تلك بالفضل في حل بعض النزاعات التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى حول مياه السقي أو حالات الطلاق، حينذاك كان يدعو أحد الوجهاء لاجتماع الأعيان، فيتم الحديث حول براد شاي في آخام (خيمة) الوجيه الذي دعا للاجتماع للتداول في الأمر وفظ الخلاف. وغالبا ما يتم تسوية القضايا البسيطة في السوق الأسبوعي[60]. أما القضايا الأكثر أهمية كمحاكمة أو جنحة أو إعلان حرب أو عقد حلف أو نقض هدنة، فإن الأمر يتطلب اتخاذ بعض الشكليات حيث يدعو أمغار المجموعة الأعيان، لموعد محدد ومكان معلوم غالبا ما يكون خيمته، وبعد الانتهاء من الأكل، يبادر الأمغار أو أبرز شخصية في الحضور لأخذ الكلمة، فينطق بعبارة "أزالات خف النبي" أي: صلوا على النبي، ثم يعرض القضية ليبدي كل واحد من

57- نفسه، ص.88.

58- الهادي الهروي، م س، ص.102-103. وأنظر لنفس المؤلف: **المغرب من الاستبداد إلى الدولة الوطنية**، إفريقيا الشرق، البيضاء،2014م، ص.179.

59 -Abdellah Hammoudi ; **Segmentarité ; Stratification; Pouvoir Politique et Sainteté : Réflexion sur les thèses de Gellner**.in **Hesperis Tamuda**; Volume XV. année 1974.P.155.

60- سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي**، ص.90.

الأعيان رأيه، وغالبا ما يتخذ النقاش شكلا هادئا، إلا في حالات نادرة تتعالى فيها الأصوات، غير أن ذلك يكون بقصد إيصال صوته ليسمعه الآخرون أكثر من الرغبة في الشجار، ويتدخل الوجيه من جديد الذي غالبا ما يكون صاحب الخيمة، بعبارة "أزالات خف النبي"، لاقتراح الحل وتلاوة الفاتحة وفظ النزاع. ويكلف الأمغار بالسهر على المتابعة وتنفيذ القرار[61].

وقد كانت "اجماعة" تحرص على عقد اجتماعاتها الدائمة، بيد أن هذه الاجتماعات، ظلت غير منتظمة، لغياب قاعدة تقننها[62].

وبالجملة، فإن أعضاء "اجماعة"، هم السادة الحقيقيون الذين يتحكمون في مصير المجموعة[63]، فهم يتداولون في شأنها، ولهم كامل الصلاحية في اتخاذ قرارات نافذة في حالات السلم والحرب. وقد قاموا بأدوار فاعلة في تدبير الخلاف وإقامة الصلح بين الأطراف المتنازعة.

2- **الشيخ:** ويعرف ب"أمغار"، يترأس قبيلته التي تنتخبه، وإليه توكل مهامها. أما الاتحاديات القبلية في المغرب، فقد كانت تنتخب كل سنة ما يصطلح عليه "بشيخ العام" الذي يختار وفق نظام التناوب، وغالبا ما يتم تداول هذا المنصب بين القبائل الكبرى المكونة للاتحادية، كما هو الحال لدى قبائل أيت عطا[64]. وتمثل كل قبيلة في انتخاب شيخ العام بممثل أو أكثر يختارهم الشيخ الخاص للقبيلة.

يقوم شيخ العام بعدة وظائف مجسدا مؤسسة عرفية قائمة الذات، فيفصل في النزاعات بين القبائل، ويحدد شروط الانتجاع الصيفي في المجال، ويقود المفاوضات مع المجموعة الأخرى المجاورة للاتحادية، كما يسهر على حماية البلاد والمصالح المشتركة فيما بين القبائل المكونة للاتحادية وتنفيذ القرارات المتخذة في اجتماعات الأعيان والتي تعقد بدعوة منه كلما دعت الحاجة. ويكون هؤلاء الأعيان مجلسا مساعدا لشيخ العام بالنصح والمشورة والمراقبة[65].

61- نفسه، ص.91.

62- نفسه، نفس الصفحة.

63- نفسه، ص.85.

64- سبيلمان (القبطان جورج)، **أيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا**، ترجمة محمد إحدى، جذور للنشر، الرباط، 2008، ص.77-78.

65- نفسه، ص.79.

وغني عن البيان، أن القبيلة، كانت تتوفر على نفس التنظيم الذي تتوفر عليه الاتحادية، فهي تختار شيخها الذي يحكمها بدعم من الجماعة ومراقبتها[66].

وإذا كان من المسلمات في العلاقات القبلية بالمغرب خلال فترة ما قبل الاستعمار، أن غياب أي رابط بين قبيلتين، يعني أنهما في وضعية عداوة دائمة[67]، خاصة في فترات ضعف سلطة المخزن أو تراجعها، فإنه كان لزاما على تلك القبائل أن تعقد علاقات حسن الجوار وفق ضمانات محددة، فكان يتم تعيين الضامنين، ويدعى الضامن "أماساي"[68] الذي يكون غالبا من أهل الغنى والجاه، ويسهر على حل مختلف القضايا والخلافات التي تنشب بين القبائل بصورة ودية. غير أن تمتين الروابط بين قبيلتين تجمع بينهما علاقة الكفالة، كان يتم بعقد الأخوة المعروف بتاضا[69].

ومن المفيد الإشارة، أن القبائل التادلية عندما تعقد أحلافا، خدمة للمصالح المشتركة فيما بينها، كانت تختار شيخا، يصطلح عليه "بشيخ الربيع"[70]، وهذا حال قبائل آيت سخمان وايت اسري المتحالفة مع أيت الربع، خدمة للنشاط الرعوي والزراعي، فقد كان "شيخ الربيع" يتدخل لحماية المراعي الجماعية المشتركة بين القبائل المتآخية. وينتخب خلال موسم الربيع لدى قبائل زيان بحسب ما أثبته أسبينيون[71]. ولعل في اختيار موسم الربيع لانتخاب هذا الشيخ، يعود إلى رمزية هذا الفصل وما يوحي به من خصب وتجدد ونماء، كما أن وضع شيوخ القبائل المتآخية لحزمة من الربيع الأخضر بين يدي "شيخ العام" عربونا على انتخابهم له، إنما فيه من الرموز والدلالات، ما يفيد بتفاؤل هذه القبائل وتطلعها لعام خصب، ذو منتوج وفير وضرع غزير، في إطار أجواء مفعمة بالأمن والتضامن لما فيه خير القبائل المتآخية.

66- نفسه، ص.79.

67- أسبينيون، م س، ص.25.

68- نفسه، ص. نفسها. - **أماساي** في اللسان الأمازيغي، وتجمع على "**ئماساين**"، وهو الضامن أو الكفيل، كما يعرف ب"**أمسكار**" جمعه "**ئمسكارن**". ومن الشروط الواجب توفرها فيه، أن يكون غنيا وجسورا له نفوذ وغلبة، ومن الأمثال المتداولة لدى القبائل العربية بمنطقة تادلا، قولهم" **الضامن بشكارتو**"، في إشارة إلى شرط الغنى والجاه الواجب توفره في الضامن، أنظر: - محمد شفيق، م س، ج1، ص.720.

69- أسبينيون، م س، ص.26.

70- **شيخ الربيع**، ويعرف لدى قبائل أيت عطا "**بشيخ العام**"، أنظر: سبيلمان، **أيت عطا**، م س، ص.77.

71- أسبينيون، م س، ص. 20. وأيضا: الفقيه الإدريسي، م س، ص.27-28.

3- الزاوية: إذا كانت الزاوية مؤسسة دينية واجتماعية، مارست وظائف عديدة داخل المجتمع المغربي خلال فترات مختلفة من تاريخه، وتراوح حضورها بين القوة والفاعلية أحيانا، والفتور والتراجع أحيانا أخرى، فإن الضغوط الأوربية على المغرب خلال القرن التاسع عشر، وما تسببت فيه من تراجع لنفوذ المخزن بين القبائل، قد ساهمت بشكل كبير في تجديد نشاط هذه المؤسسة التي عاودت الظهور من جديد لاستئناف نشاطاتها المعتادة كقوى لها تأثيرها في الوسط المغربي عامة، والمجتمع التادلي على وجه التحديد[72].

وعليه، فإن مجموعة من الزوايا التادلية خلال القرن التاسع عشر، قد تبوأت مكانة متميزة ومارست وظائف تحكيمية وصلحية، بل تدخلت بكل ثقلها لتعديل شروط الصراع والقيام بأدوار طلائعية لنزع فتيل الخلاف واحتواء مظاهر العنف بين القبائل، وهو ما قامت به زاوية أحنصال[73] وأسرة أمهاوش[74] في التوسط بين قبائل آيت عطا وآيت سخمان وآيت اسري قصد الصلح وتسوية الخلافات. ونفس الوظيفة قامت بها كل من الزاوية الشرقاوية[75] في بسيط تادلا، وزاوية آل البصير بدير بني عياط[76] وهي الزوايا التي قصدت إشاعة الأمن في صفوف القبائل المتنازعة، حيث كان الشرفاء يحرصون على حضور عهود الصلح والأخوة التي تترسخ مع مرور الزمن. كما أن زاوية الصومعة ببني ملال، كانت تتدخل للتقريب والجمع

72- ومعلوم أن المجتمع التادلي عرف بنشاطه الصوفي منذ الحقبة الوسيطية، وهو تؤكده بعض المصادر وخاصة صاحب التشوف الذي ذكر عن أحد الصلحاء "أنه أدرك ببلاد تادلا مائة وسبعين رجلا من الصالحين كلهم يزارون"، أنظر:- ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم:22، ط 2،1997، ص. 404.-أيضا: نورالدين امعيط، **قراءة في كرامات صلحاء تادلا من خلال كتاب التشوف لابن الزيات التادلي، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، بني ملال**، العدد:14-15، السنة: 2014/2013، ص.75-90.

73 -Magali (Morsy);**Les Ahansala; examen du rôle historique d'une famille maraboutiques de l'atlas marocain au xviii siècle** ;Parie Mouton ; La Haye ;1972 ;PP.25-41.

-وقد كان شرفاء ومرابطو الزاوية الحنصالية، يحضرون كشهود أو محررين للعقود والمواثيق بين الأفراد والقبائل على حد سواء، لما كان لهم من سلطة ومكانة رمزية في المجتمع التادلي، وبحوزتنا وثيقة عبارة عن عقد دية بين أفراد أسرة القاتل والمقتول، دالة على ما كانت تقوم به هذه الزاوية من أدوار لفظ النزاعات ومحو الضغائن.

74 -George(Drague);**Esquisse religieuse du maroc**; Paris.1952.PP.151-153.

75- أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، **زاوية أبي الجعد ودورها الاجتماعي والسياسي**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1989، ص.22-23. وأيضا: الفقيه الإدريسي، **البيعة الشرقاوية والحركة الحفيظية، قراءة في محمولات السياق وخصوصية الموقف، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال**، 2010، العدد 11، ص.213. وأنظر لنفس الباحث، **عهود الأخوة وأثرها في تدبير مجالات المشترك القبلي بجهة تادلا**، م س، ص.30.

76- عبد الهادي بصير، **زاوية الشيخ إبراهيم البصير ببني عياط، تاريخ وتعريف**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 1430هـ/2009م، ص.91-92.

بين مجموعات قبلية مجاورة مستغلة رأسمالها الرمزي المستمد مما كانت تقوم به من أدوار تعليمية-تربوية وإطعامية وتحكيمية منذ نشأتها[77]، فكان المرابطون يتدخلون لعقد عهود بين الزاوية وجوارها القبلي كما حصل مع أيت عبد اللولي وآيت محند الفرقتان المنتميتان إلى آيت اسري، وهي عهود أكدت على "الالتزام بالتكافل وحسن الجوار، وبكسوة سيدي أحمد بن قاسم الصومعي وبتحمل مسؤولية تموين زواره لمدة معينة"[78]. وبامتداد نفوذ و إشعاع زاوية الصومعة، امتدت تدخلاتها وعهودها مع قبائل بعيدة عنها دانت لها بالولاء الروحي والخدمة الموصولة كقبيلة آيت مصاض على سبيل المثال[79].

والواضح أن زوايا منطقة تادلا، قد لعبت أدوارا طلائعية كمؤسسات لها دورها البارز في تدبير حالات الخلاف داخل المجتمع القبلي، لما كان يحظى به شيوخها من ثقة لدى المجتمع التادلي أفرادا وجماعات.

رابعا: دور الأعراف التضامنية في نبذ الخلافات بمنطقة تادلا

شكل عرف تاضا التضامني، حضورا وازنا في المجتمع التادلي، كما في غيره[80]، حيث ساد هذا العرف فيما بين القبائل الأمازيغية، وبينها وبين القبائل العربية، بل وحتى فيما بين القبائل العربية نفسها، فيما اصطلحت عليه "بعهد الخاوا"[81].

وعلى الرغم من ندرة الأبحاث وشح الوثائق المدونة حول الأعراف والمواثيق التضامنية التي جمعت فيما بين القبائل التادلية، فإن الرواية الشفوية احتفظت لنا بنماذج دالة على أهمية الأعراف التضامنية، وما كان لها من دور فعال في حسم حالات الصراع واحتواء مظاهر النزاع بين القبائل.

ولعل من بين نماذج الأعراف التضامنية التي لازالت راسخة في الذاكرة الجماعية بمنطقة تادلا، نذكر"عهد الخاوا" الذي جمع بين دوار أولاد عبد الله من قبيلة بني عمير، ودوار أولاد يعيش المنتسب لقبيلة بني معدان أواخر القرن

77- محمد البشير بوسلام، **تاريخ قبيلة بني ملال (1854-1916)، جوانب من تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة تادلا**، مطبعة المعارف الجديدة، 1991م، الرباط، ص ص.147-148.

78- نفسه، نفس الصفحة.

79- نفسه، نفس الصفحة. وأيضا: الفقيه الإدريسي، م س، ص.29-30.

80 - Hammou Belrazi; **TADA chez les zemmour ;Instances ; Puissance, Evanescence** ; Publication de L IRCAM. série : Etudes et thèse ; N .4. Rabat; 2008 .P.102.

- أيضا: عبد الله استيتيتو، م س، ص. 186.

81- الفقيه الإدريسي، **عهود الأخوة**، م س، ص.23.

19م[82]. فضلا عما أوردته النصوص التاريخية عن عهد الأخوة الذي جمع بين كيش أيت الربع[83] الموالية للمخزن، وقبائل أيت اسري و ايت سخمان، وهي من القبائل الأكثر عنادا وحساسية لسلطة المخزن ومطالبه الجبائية[84].

وإذا كان وضعهما، لايسمح بالتحالف والاتحاد بالنظر لعلاقة التضاد التي تربطهما بالمخزن، فإن الظروف الطبيعية الصعبة، والإرث التاريخي الممتد عميقا في بنية المجال التادلي الواصل بين السهل والجبل، قد حتم على هذه القبائل المنتجعة عدم الخضوع لهواجس المخزن الأمنية، وابتكار علاقات أخوة عن طريق أعراف تضامنية، كان أبرزها عرف تاضا.

ولعل في عادات الترحال والانتجاع التي دأبت عليها جموع بني جابر بين الجبل والبسيط، بمنطقة تادلا، ما يؤكد علاقات التضامن بين مختلف السكان التادليين، فقد كان الجابريون يندرجون في حلف البربر كلما استشعروا خطرا محدقا، ويعودون إلى البسيط كلما غابت موانع ذلك، وعن ذلك يذكر ابن خلدون أن بني جابر" تحيزوا من أحياء جشم إلى سفح الجبل، فيسهلون إلى البسيط تارة، ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة"[85].

وإذا كان نص ابن خلدون يحيل على ظاهرة الانتجاع الموسمي كنمط من أنماط عيش قبائل بني جابر العربية في فحص تادلا، وفق نظام دوري محكم بين القبائل العربية في السهل ونظيرتها الأمازيغية في الجبل، منذ الحقبة الوسيطية على الأقل، فإن حتميات الطبيعة وإكراهات المجال، قد حتمت على هذه القبائل بناء علاقات

82- استندنا إلى الرواية الشفوية في توثيق تاريخ عقد "عهد الخاوا" بين أولاد يعيش و أولاد عبد الله في المجال التادلي. ولم يسعفنا الحظ في العثور على وثائق مادية تثبت ذلك.

83- هي قبيلة كانت تتمركز بجوار قصبة تادلة من القبائل الموالية للمخزن والمساهمة في تكوين جيشه، وكلفت بمهام حفظ الأمن والاستقرار ومراقبة القبائلية الأمازيغية في الجبال، والحيلولة دون نزولها نحو السهل.

84- أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، ج8، ص.113. - أيضا: لويس أرنو، **زمن المحلات السلطانية، الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912**، ترجمة ناجي بن عمر، ص.57-58. -أيضا: علي بنطالب، **المخزن والقبائل، الضغط الجبائي وتداعياته 1894-1912**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2013، ص ص.284-286.

- أيضا: الفقيه الإدريسي، **عهود الأخوة**، م س، ص.24.

85- ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن والحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م، ج6، ص.42.

تضامنية وروابط أخوية، أفشلت في كثير من الأحيان خطط المخزن لكسر هذه الروابط[86].

وقد تنصلت قبائل أيت الربع في كثير من الأحيان من التزاماتها المخزنية التي كانت تجعلها دوما على خط المواجهة مع قبائل آيت اسري لمنعها من ولوج السهول آواخر الخريف وبداية الشتاء، ورفضت قبائل آيت الربع المشاركة في حركات عسكرية عديدة، كانت تستهدف عقاب القبائل الجبلية، كلما تجاوزت بتحركاتها شريط الدير[87]. وقد كان هذا التمرد على الأوامر المخزنية، تعقبه في الغالب عقد جملة من التحالفات بين قبائل آيت الربع وجوارها القبلي، في إطار علاقات "خاوا" شديدة التلاحم والانصهار بعيدا عن مظاهر الصراع والخلاف، تبعا لمصالح اقتصادية مشتركة اقتضتها ظروف المجال.

وقد ارتبط عقد الأعراف التضامنية في غالب الأحيان بتدبير المشترك من المراعي الجماعية. لذلك فالحفاظ على علاقات الود والوفاق بين القبائل التادلية، كان يقتضي عقدها لتحالفات غالبا ما يتم تقنينها بطقوس خاصة كتاضا. ولا تعوزنا القرائن الدالة على هذه العهود التضامنية والتحالفات، سواء في المجال الجبلي أو المناطق السهلية.

ففي المجال الجبلي، لا تزال الرواية الشفوية تتحدث عن مميزات تلك العلاقة التي تربط أيت داود وعلي من أيت سخمان مع قبيلة أيت احديدو من أيت عطا، وهي علاقة تتسم بحسن الجوار والتضامن والمهادنة، تم ترسيخها عن طريق عرف الأخوة والتضامن المعروف بتاضا. ولا يزال الطرفان يعبران لبعضهما البعض عن علاقة الأخوة التي تربطهما، خاصة يوم افتتاح الموسم السنوي للخطوبة بإملشيل الذي يتم فيه استقبال أفراد قبيلة أيت داود وعلي أحسن استقبال، وهو الموسم المعروف أيضا بسوق عام.وفي المقابل يتم استقبال رعاة أيت احديدو أثناء افتتاح المراعي[88] من طرف أيت داود وعلي.

86- محمد البشير بوسلام، م س، ص.170.

87- نفسه، ص.211.

88- كان افتتاح هذه المراعي:"**إكدالن**"، عبارة عن مهرجان كبير، تذبح فيه الذبائح، وتقام الحفلات والمسابقات حول اختيار أجود أنواع قطيع الماشية. ويشرف على ذلك "**أمغار نيكدلان**" أو شيخ المراعي، ومساعدين له.

أما في المجال السهلي لمنطقة تادلا، فإن الأعراف التضامنية بين القبائل أو ما يعرف بعهود "الخاوا"، قد ساهمت بشكل كبير في درء ظواهر الصراع والنزاع التي ظلت تتجدد باستمرار، حول مجالات الرعي وموارد المياه. وقد لعبت عهود الأخوة بين القبائل التادلية، دورا بارزا في حسم الخلافات وإنهاء حالة الصراع والتشرذم بينها، فقد ارتبطت قبيلة بني ملال وبني معدان بروابط أخوية[89] بهدف تكريس روح التضامن والحفاظ على حسن الجوار. كما ارتبطت قبيلة بني ملال بعهد أخوة مع قبيلتي بني موسى وبني عمير، مما فسح المجال لهما للرعي والانتجاع في متنفس دير بني ملال والاستفادة من المراعي ومنابع المياه[90].

وفي نفس السياق، تؤكد الذاكرة الجماعية بسهل تادلا، أن من نماذج الأعراف التضامنية، ما كان يربط بين مكونات قبيلة بني شكدال من عهود "الخاوا"، حين اتحدوا قصد مواجهة الهجومات التي ظلوا يتعرضون لها من طرف القبائل المجاورة، وخاصة بني عمير وبني موسى[91].

وقد شكل ميلاد هذا العهد بين الفرق الشكدالية، حدثا موشوما في الذاكرة الجماعية لأبناء المنطقة، حتى صار الاحتفال به في موسم خاص يعرف "بموسم العهد"[92]، تقليدا يكاد يخلد سنويا.

ويبدو أن ذاكرة المكان، كانت أكثر رسوخا واستماتة في تخليد ميلاد هذا العهد، إذ تذكر الرواية الشفوية، أن شيوخ القبائل الشكدالية، اجتمعوا في آخر أيام الموسم الأول بمكان أرض جماعية، ورموا فيه بكمية من الأحجار حتى صار عبارة عن "كركور"، تعبيرا منهم عن إرادة التلاحم والتضامن الذي صار يجمعهم، ليصير المعلم الشاهد في قابل السنين والأعوام، معلما ورمزا شاهدا يؤرخ بسيمياء الحجر[93] أن العهد كان بهذا المكان.

89- محمد البشير بوسلام، م س، ص.186.

90- نفسه، ص.180.

91- الفقيه الإدريسي، **عهود الأخوة**، م س، ص.31.

92- تذكر الرواية الشفوية أن موسم العهد، جاء نتيجة لميلاد عهد بين قبائل بني شكدال (موالين الدراع وموالين الواد) والذي يعود إلى سنوات العشرينات من القرن الماضي، وهو الموسم الذي تم إحياؤه من طرف بني شكدال الواد على أرضهم، سنة 1959م، وتخللته ألعاب الفروسية وموسيقى اعبيدات الرمى، إلى سنة 1966م، ليتوقف بعد ذلك. ويعاد إحياؤه منذ سنة 2008 م. وأنظر أيضا : الفقيه الإدريسي، **عهود الأخوة**، م س، ص.34.

93- نفسه، ص. نفسها.

خـاتمـة:

وصفوة القول إن المجتمع التادلي قد أبدع، كغيره من التنظيمات القبلية بالمغرب، أنماطا شتى من التحالف والتضامن، وفق أعراف وتقاليد، ذكرنا منها بعض النماذج للتمثيل لا الحصر، وهي أعراف ساهمت بدور فعال في احتواء مظاهر الصراع والخلاف بين مختلف مكونات المجتمع التادلي، بل بينه وبين جواره القبلي أيضا، خاصة في الفترات التي شهدت غياب سلطة المخزن أو ضعفها.

وبالفعل، فقد نتج عن هذه الأعراف التضامنية، بناء علاقات سلمية يسودها الإخاء والتآزر، فسمحت باستغلال عادل للمراعي المشتركة والسواقي، قلصت من الاعتداءات التي غالبا ما كانت تهدد حركية التبادل التجاري بالمنطقة.

وهكذا، ظلت الأعراف والعادات التضامنية بمنطقة تادلا، بمثابة قوانين ملزمة، فلكل قبيلة أو اتحادية(لف) ترسانة من الأعراف تستمدها من مؤسساتها كالجماعة والشيخ والزاوية.

والحاصل، أن هذه الأعراف، ظلت بمثابة إفراز موضوعي استوجبته ضرورات تأطير المجتمع القبلي وتوحيده، في إطار سعي هذا الأخير إلى ضمان شروط إنتاج وإعادة إنتاج ذاته باستمرار. ومن هذا المنظور، فقد اعتبر "العرف قانونا يتم بواسطته الحفاظ على تلاحم النظام القبلي الذي تخترقه في الواقع تناقضات جوهرية مهددة له، لأن التضامن القبلي هو إديولوجية، أكثر من كونه واقعا. لذلك كان العرف التضامني تعبيرا عن هذا التلاحم والتضامن، وفي الآن نفسه واجهة للدفاع عما يتهدد كيان هذا التضامن"[94]، وبعبارة أوضح فإن هذه الأعراف، بقدر ما كانت تحمل في ظاهرها تجليات التضامن والتآزر، بقدر ما كانت تخفي في جوهرها بذور الصراع والتنافر.

94- رحمة بورقية، **العرف والعلماء والسلطة في مغرب القرن التاسع عشر، قراءة في بعض نصوص النوازل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع**، العدد7، 1984، ص.157. وأيضا: محمد جحاح، م س، ص ص.128-129.